

الجزء الثاني

أم الدنيا والصحف الأولى

(أساطير وتاريخ)

موجز تاريخ الصحف الأولى ، أي شريعة التوحيد ، بمصر قبل أقدم العصور
وحتى نزول الكتب السماوية

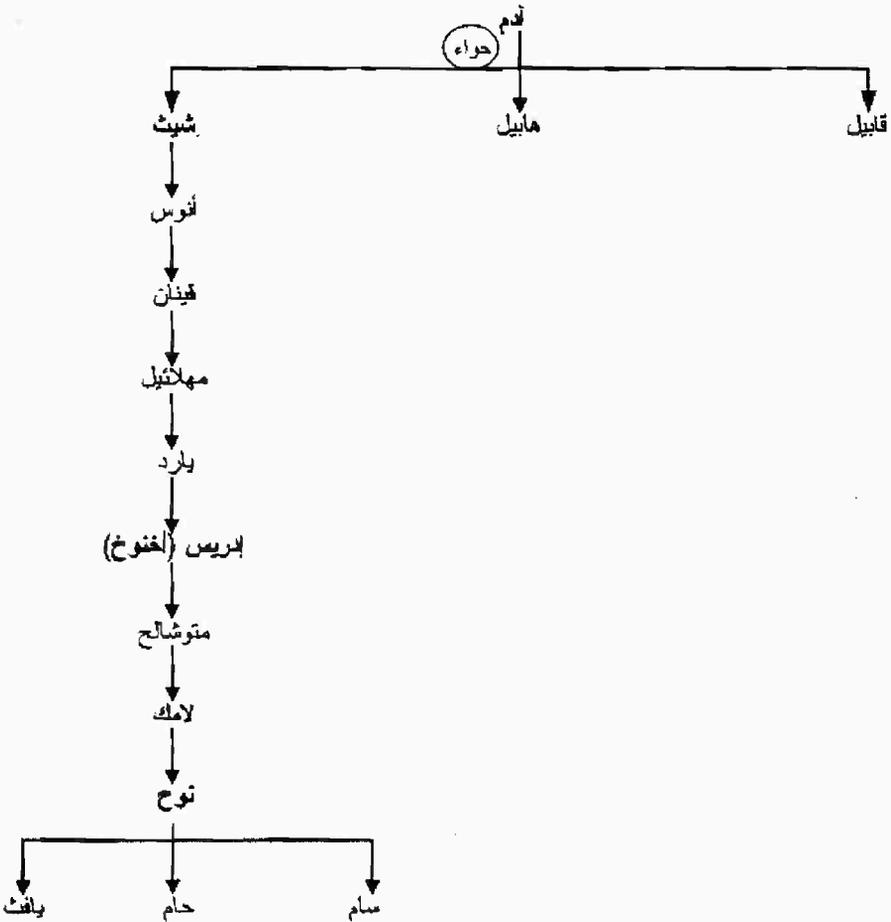
الفصل الأول

مصر وأنبياء القدوة

شيث و إدريس فى عصور ما قبل التاريخ شيث ابن آدم

لقد نشأت الأقوام الآسيوية منذ أكثر من مائة قرناً من سلالات وطوائف عدة. بدأت ببني آدم وهجرتهم من جنوب غرب آسيا إلى جميع أرجاء الأرض، وخاصة المناطق الدافئة التي تتوفر بها المياه والمراعى وسبل العيش الأخرى، مثل : جنوب غرب آسيا وأراضى ما بين النهرين، وشرق أفريقيا ووادى نهر النيل، وسواحل بحر الروم (المتوسط). ثم تجددت الهجرات بعد طوفان نوح (أى بعد حوالي ثلاثون قرناً) ، هجرات أبنائه الثلاثة (سام وحام ويافث) وذرياتهم. وعلى أية حال، فإن الساميين هم العنصر الذى كان له الغالبية، والذى استطاع أن يصمد ويعيش، ولم يندثر بمرور الزمن مثل بقية العناصر الأخرى. فتألف منهم الزحف الإسطىطانى البطىء، والغازى الذى شنته شعوب آسيا الوسطى والجنوبية بعد ذلك (أى بعد حوالي خمسون قرناً) على جنوبها الغربى وشمال شرق إفريقيا. ولقد جلبوا معهم حضاراتهم السومارية (من أرض سومر، بجنوب ما بين النهرين، نسبة إلى صمارى بن كنعان بن حام بن نوح، وخففت الصاد إلى سين) والآشورية (من شمال شرق ما بين النهرين، نسبة إلى آشور، أى الرحمن، بن سام) والبابلية (نسبة إلى بابل) (باب+إيل أى باب الله) ودياناتهم وأفكارهم الجديدة بالنسبة لهذه المناطق، التى استوطنوها فى دعة وسلام .

وكان من الطبيعى سيطرة هذه الأقوام الآسيوية على كل أراضى ما بين النهرين (حيث بعث الله منها بعد ذلك إبراهيم ولوط عليهما السلام) ومنها إلى الشام وفلسطين ثم مصر تدريجياً، أى متخذين سبيلهم من الشمال إلى الجنوب على ساحل بحر الروم. ولقد بدأوا ذلك عن طريق غارات قبلية متقطعة للسلب والنهب. ثم هدأ الحال وأصبحوا يأتون بوصفهم نزلاء وزوار مسالمين .



وبالقطع كان لحضارات هؤلاء الأقبام الوافدة تأثير على فكر شعوب البلاد التي وفدوا إليها. وفي المقابل إستعارت هذه الأقبام الكثير من حضارات تلك البلاد العريقة .

لما شاء الله سبحانه أن يخلق من يقوم بتعمير الأرض بإستخدام العلم والمعرفة، خلق الإنسان العاقل وإختصه باسم "البشر" وكان ذلك قبل التاريخ الذي نعرفه، (أي قبل العصر المصري العتيق أو الأسرة الأولى حوالي عام

٤٠٠٠ ق.م.) بزمن غير معروف بدقة ٠٠٠؟ خلقه من طين، أى تراب الأرض ومائها، وسوى جسده وصوره، ثم نفخ فيه من روحه :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۗ
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأنبياء ٣٠)

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(السجدة ٧-٩)

وسماه بما خلق منه " آدم " وهو أديم الأرض، أى ما ظهر منها وهو ترابها أو بشرتها، ومنها جاء إسم "البشر". وعلم الله آدم الأسماء، أى صفات الأشياء المحيطة به وخواصها، وهى بلغتنا العصرية، المعرفة الإنسانية :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ
﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق ١-٥)

وخلق الله حواء زوجةً لآدم لتؤنسه. لم يذكر القرآن الكريم إسم حواء. ولكنها سُميت بما خلقت له " حواء " أى السكن والألفة والمودة والرحمة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(الروم ٢١)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

(الأعراف ١٨٩)

وأنزلهما من الجنة إلى الأرض (أرض اليمن على الأرجح)* بعد أن تساب عليهما من خطيئتهما بسماعهما لوسوسة الشيطان :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٩٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا مَخَصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۗ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٩١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٩٢﴾ ﴾

(طه ١٢٠-١٢٢)

﴿ يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يُرِنكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(الأعراف ٢٧)

وخلق نسلهما ليكون مجتمعاً من البشر للحاضر والمستقبل إلى حين، أي إلى أن ينتهي أجلهم، أو إلى يوم القيامة :

* معالم تاريخ الإنسانية، هـ. ج. ويلز (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۗ شَهِدْنَا ۗ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(الأعراف ١٧٢)

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(السجدة ٨)

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۗ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۗ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

(البقرة ٣٦)

أنزل الله على آدم عشرة من صحفه الأولى (وهي مائة صحيفة عن أبي ذر الغفاري عن محمد رسول الله) ليبلغها لذريته. وبذلك يكون آدم أول أنبياء القدوة على الأرض. بهذه الصحف أوحى الله إلى آدم وإلى الأنبياء من بعده بدعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته، ولإنذارهم وتخويفهم من عذاب الله :

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٧٥﴾ ﴾

(إبراهيم ٥٢)

وكذلك إلى فعل الخير والبعد عن الرذائل. وألا يستجيبوا للشيطان لأنه عدو مبين لهم :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(يس ٦٠-٦١)

وأن ينقذوا الأرض من الخراب والفساد وسفك الدماء الذى حل بها من قبل (أى من مئات آلاف السنين) وذلك بزراعتها وإستغلال مواردها وثرواتها ليعم الخير والحياة الرغدة فيها. وبذلك شاء الله أن تعمر الأرض وتقوم الحضارة عليها بالعقل والتفكير والعلم والمعرفة. وأن يتحقق مفهوم الإستخلاف فى عبادة الله، وفى تعمير الأرض :

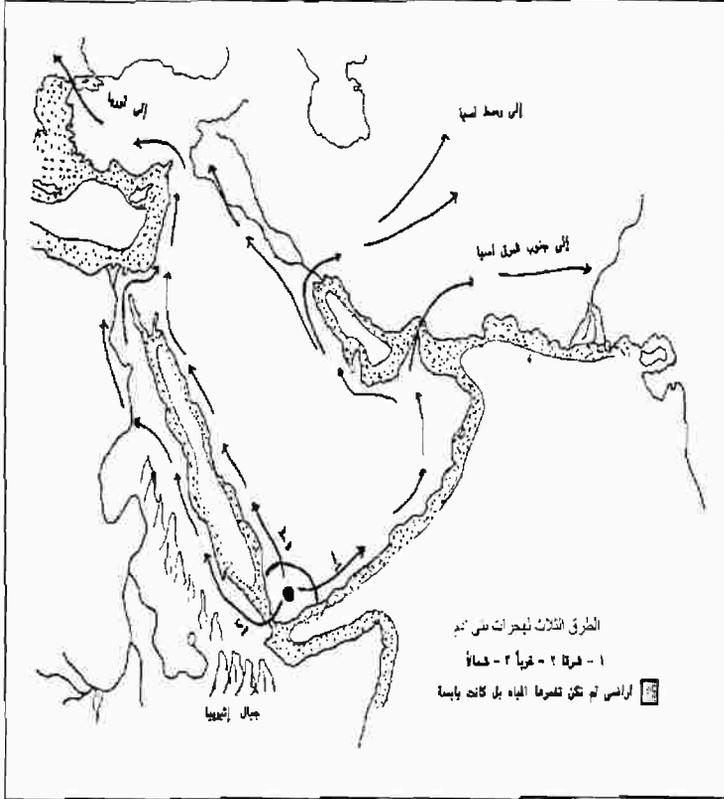
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَقَدَّمُ أُنْبِيَائِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(البقرة ٣٠-٣٣)

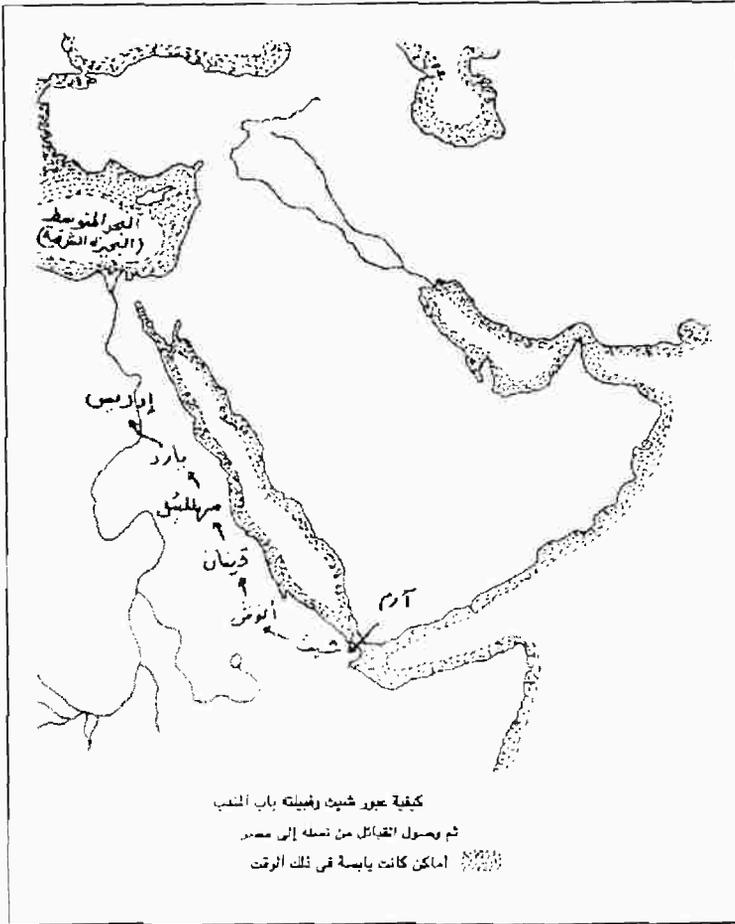
مات نبي الله آدم وترك لأبنائه شريعة التوحيد ووصية تطمئنهم بأن الله لن يترك البشر وحدهم على الأرض، وإنما سيرسل لهم أنبياء متتابعين بالهداية وبشريعته فى العبادة. وماتت حواء بعد زوجها بعام واحد، بعد أن ولدت له عشرين توأما (ذكر وأنثى) فى عشرين بطن، وذكر منفرد فى بطن واحدة.

أولهم قابيل وتوأمته "إقليما"، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته "أمة المغيث". أما الذكر المنفرد فسماه "شيث" ومعناه "هبة الله"، لأن الله عوض آدم به عن ابنه هايل الذي قتله أخوه قابيل ظلماً وعدواناً. ولم يُذكر ترتيب شيث بين إخوته. وفرّ قابيل وذريته شرقاً، خوفاً من أبيه لغضبه الشديد عليه، إلى أرض "تود" (عمان حالياً) وبعد ذلك شمالاً عن طريق الخليج العربي (أو الفارسي) إلى أرض ما بين النهرين (العراق حالياً) حيث إستقروهم المقام وخاصة في مناطقها الشمالية الجبلية المرتفعة، شرق هضبة الأناضول (تركيا حالياً) أى عند منابع نهري دجلة والفرات. ولقد كشفت البحوث الأثرية عن حضارات هذه الحقبة (بالعصر الحجري الأوسط، أى من ٨٠٠٠-٤٠٠٠ سنة ق.م.) فعثر بها على تماثيل طينية بدائية وأواني فخارية مرسوم عليها أو مزخرفة .

لقد أكدت الدراسات العلمية، أن الخليج العربي كانت أرضه فى الماضى السحيق منخفضة وبابسة، أو مياهها ضحلة. وكانت تشقه من الشمال إلى الجنوب قناة تأتي مياهها من مصب نهري دجلة والفرات. وأن المحيطات والبحار منذ أواخر العصر الحجري القديم (أى من ٦٥٠ - ٨ آلاف سنة ق.م.) وبداية العصر الأوسط، أخذت فى الإرتفاع، نتيجة لمناخ دافئ ساد الكرة الأرضية، وأدى إلى ذوبان الثلوج وبالتالي إرتفاع منسوب مياه المناطق المنخفضة تدريجياً، مثل: البحر المتوسط، وبحر القلزم، والخليج العربي، حتى إستقر إرتفاع المياه بها إلى الوضع الحالى. وأن مياه البحر المتوسط المرتفعة، شقت طريقها لتفصل آسيا عن أوروبا، محولة البحيرة العذبة هناك إلى بحر، هو البحر الأسود الحالى. ولقد أقامت شعوب هذه الأماكن (مثل: أراضى ما بين النهرين والأناضول وسواحل البحر المتوسط ووادي نهر النيل) حضارات كبيرة .



ولما ضاقت أرض آدم وبنيه بهم، لكثرة عددهم بمرور الزمن، إنتشروا شمالاً وشرقاً وغرباً وإستوطنوا بلاد العالم القديم (أرض ما بين النهرين، وشرق شبه جزيرة الأناضول، وبلاد فارس، وشبه الجزيرة العربية، وبلاد الشام، وفلسطين، ومصر) كما ثبت من معالم الآثار والتماثيل الطينية البدائية والأواني الفخارية المزخرفة الرسوم، الموجودة بها .



إتجه شيت وذريته غرباً عبرجنوب بحر القلزم (الأحمر حالياً) عند باب المنذب حالياً، حيث كانت أرضه شبه جافة أو ضحلة المياه في ذلك الوقت، إلى الساحل الإفريقي الشرقى (كان ذلك قبل ذوبان الثلوج، وبالتالي إرتفاع منسوب مياه المحيطات والبحار، نتيجة لمناخ دافئ ساد الكرة الأرضية أواخر العصر الحجري القديم، كما ذكرت بعض الدراسات العلمية). وإتجه شمالاً لتجنب مرتفعات هضبة كوش (الحبشة حالياً) ثم غرباً إلى وادى نهر النيل الخصب (صعيد مصر حالياً) عبر وادى الحمامات. وهناك إستقر بهم المقام (أول

هجرة آسيوية لمصر). إختار الله شيث ليكون أول نبي بعد آدم، وأنزل عليه خمسين من صحفه الأولى. فواصل شيث دعوة التوحيد فى الأرض، أى فى "مصر" وقد جاء بالقرآن الكريم اسم مصر خمس مرات صراحة فى أربعة سور (البقرة: ٦١. يونس: ٨٧. يوسف: ٢١، ٩٩. الزخرف: ٥١) وعدة مرات تصل إلى ١٧ مره ذكر اسم مصر بالأرض كناية عنها فى سبع سور (المائدة: ٢٦. الأعراف: ١٢٧. يوسف: ٢١، ٥٥، ٥٦، ٧٣، ٨٠. الإسراء: ١٠٣. القصص: ٤، ٥، ٦، ١٩، ٣٩، ٧٧. العنكبوت: ٣٩. غافر: ٢٦، ٢٩).

ولتوضيح الفكرة ذكر اسم مصر صراحة وكذلك الأرض كناية عن مصر فى آيه واحده سوياً وهى الآيه ٢١ فى سوره يوسف :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۗ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۗ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۗ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(يوسف ٢١)

" وهذا يعتبر من إعجازه .

بعد حوالى قرن واحد واصل شيث ترحاله شمالاً (تاركاً بعض من ذريته بمصر) إلى أرض الشام ومنها إلى شمال أرض ما بين النهرين، حيث أقام ومن معه، منضماً لأبناء عمومته المتواجدة هناك .

لم يقص القرآن الكريم قصة نبي الله شيث، ولكن التوراة ذكرتها :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۗ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(النساء ١٦٤)

إدريس هرمس الهرامسة

وَبِمُضَى الزَّمَنِ (حوالي ٤٠٠ سنة) نسي بنو شيث وسكان وادي النيل شريعة التوحيد وأشركوا بالله، وعبدوا أرباباً من الأصنام. وحسبت القلة المؤمنة عقيدتها في صدورها من شدة الخوف، إلى أن أرسل الله إليهم نبيه " إدريس " كما جاء بالقرآن الكريم (وهو كأسم، يكافئ حنوك أو حنوخ نطقاً بالعبرية، بالتوراة، وتغريبها أخنوخ). وهو أحد الأنبياء الصديقين الثلاث - إدريس وإبراهيم ويوسف عليهم السلام :

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۗ ﴾ (مريم ٥٦)

أما نسبه فهو غير مؤكد، ولكن ذكر بأنه ابن يارد بن مهلائيل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم (أي أنه حفيد حفيد حفيد آدم) :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِسَ ۖ وَقَدْ آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ ۚ وَكَانَ صِدْقًا ۗ ﴾ (مريم ٥٦) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۗ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾

(الأنبياء ٨٥-٨٦)

وهو ثالث من أعطوا النبوة بعد آدم وإينه شيث بالرغم من أن شيث لم يُذكر اسمه كنبى بالقرآن (كما أسلفنا) إلا أنه يُعتبر ممن لم يقصصهم الله علي الرسول (النساء : ١٦٤). ويعتبر إدريس ثاني نبي من أنبياء الله العشرة المكرمين الذين استضافتهم مصر علي التوالي، وهم : شيث و إدريس و إبراهيم و لوط و يوسف و يعقوب و موسى و هارون وشعيب وعيسي. وهو أول النبيين الذين رفعهما الله إليه وهما إدريس وعيسي :

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ ﴾ (مريم ٥٧)

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصِّبْغَ بِأَيْمَانِكَ وَاجْعَلْهُ فِي صَدْرِكَ وَأَنْزِلْهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِكَ وَأَنْزِلْ الرِّسَالَةَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آلِ مَرْيَمَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ آلِكَ لِلْعَلَمِ الْأَعْلَمِ ﴾

(آل عمران ٥٥)

أنزل الله علي إدريس ثلاثين صحيفة من صحفه المائة، المنزلة علي أربعة فقط من أنبيائه، كما جاء بحديث المصطفي صلي الله عليه وسلم :

عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كتاب أنزل الله تعالى ؟ قال:

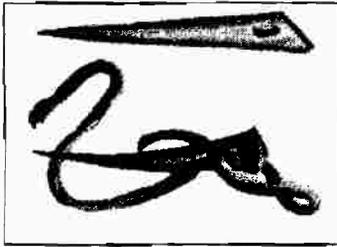
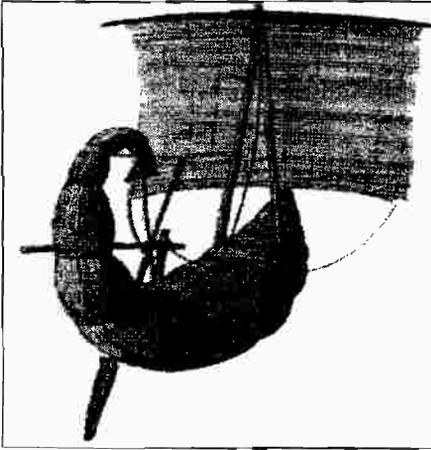
[مائة صحيفة وأربعة كتب : ١٠ صحائف علي كل من آدم وإبراهيم ، و ٥٠ صحيفة علي شيث، و ٣٠ صحيفة علي إدريس. وأنزل التوراة علي موسى ، والزبور علي داود، والإنجيل علي عيسى، والقرآن علي محمد.] صدق رسول الله.

(الكشف - الزمخشري: ٢-٤١٤ . عرائس المجالس - الثعلبي: ١٢٠) .

أخذ إدريس (ويعنى الدارس) أو أخنوخ (ويعنى المُحَنِّك) بعلم جديهِ الكبيرين شيث و آدم، وأنزل الله عليه ثلاثين من صحفه الأولى (كما ذكرنا). ويعتبر إدريس أول من خط أو رسم بما يشبه القلم حالياً، وتكلم في التفسير والأحكام. فذكر سكان شمال وادى النيل (مصر) بتعاليم الله الواحد الخالق لكل شئ، وأن الحياة الدنيا فانية. وسوف يعقب الممات بعث لحياة الآخرة، حيث يكون الحساب على أعمال الدنيا بالثواب والعقاب. لذلك دعاهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالعمل الصالح، ومساعدة الضعفاء، والزهد فى الدنيا حماية للنفس فى الآخرة، فأمنوا به. كما شدد إدريس علي المصريين بالطهارة من الجنابة، وكلمهم عن الكواكب والنجوم وحركتها، وعن الليل والنهار، لأن الله أفهم أسرار الفلك وعدد السنين والحساب .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۗ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّينِ وَالْحِسَابِ ۗ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(الإسراء ١٢٤)



لذلك أطلق المصريون عليه اسم "هرمس الهرامسة"، ولأنه أيضا كان أول من علمهم بعض الصناعات الصغيرة البسيطة وتطويرها، مثل: الطوب اللبن لبناء البيوت، وبناء الأطواف (أو الطفاوات أو المعديات) من فروع

الأشجار ونبات البردي والحبال، وقلوعها من الحصير، لاستخدامها للطفو وعبور نهر النيل. وصناعة الورق من نبات البردي، فيما بعد، الذي كان له أثر كبير في التقدم الحضاري. إذ حرص المصريون علي نسخ المؤلفات الهامة في مختلف العلوم والآداب (يلاحظ أن من إسم نبات البردي باللغة اليونانية "papyrus" إشتق إسم الورق). وأيضا غزل ونسج الوبر وصوف

الغنم وخيوط نبات الكتان. واخترع الإبرة ذات العين، وصنعها من العظام والقرون. وبذلك أمكنه حياكة الثياب من الأنسجة الوبرية والصوفية والكتانية، لتحل محل جلود وفراء الحيوانات. وكذلك علمهم دفن الموتى والصلاة عليهم. وجعل لهم أعيادا في أوقات معروفة، مثل: رؤية الهلال وفيضان مياه نهر النيل ٠٠٠ وغيرها. واستخدام القرابين في هذه المناسبات، مثل : إطلاق البخور، وذبح الذبائح، وتقديم الورود والحنطة (القمح) والأعشاب. كما علمهم استعمال المكاييل والموازين، وعلوم الطب والعلاج الطبيعي باستخدام الأعشاب والمواد النباتية والحيوانية في علاج بعض الأمراض .

رتب إدريس الناس ثلاث طبقات: كهنة وملوك ورعية. وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك، لأن الكاهن يسأله الله في نفسه وفي الملك وفي الرعية. وليس للملك أن يسأل الله إلا في ملكه وفي الرعية. وما له أن يسأله في الكاهن، لأن الكاهن أقرب إلي الله منه. وليس للرعية أن تسأل الله في شئ إلا في أنفسها .

كانت الناس في مختلف بقاع وبلدان الأرض آنذاك، أي في أيام إدريس، تتكلم لغات عديدة. ولقد قام إدريس بجولة لزيارة بعض البلدان خارج وادي النيل. وألهمه الله منطلق كل بلد زارها ، فعلمهم بأسسهم كيفية التعمير والإنشاء. فبنى كل فريق مدنا في أرضه. كما علمهم بعض الصناعات البسيطة، ولذلك أطلقوا عليه إسم "المعلم الأول للبشر". ولما عاد إلي مصر، سار مع الله مصدقا لكل ما يوحي إليه. وبعد أن أدى إدريس رسالته، رفعه الله إليه، وكان عمره حوالي ٣٦٥ سنة، تاركاً أصحابه علي الشريعة الإدريسية :

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا

(مريم ٥٦-٥٧)

عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

(وكذلك عن التوراة) .



لم يُعرف مسقط رأس إدريس عليه السلام. ولكن قيل أنه ولد بقرية في صعيد مصر، وكان ذلك في حياة أبيه "يارد" وجديه الكبيرين "ثيث" و"آدم" عليهما السلام.

أطلق المصريون القدماء على إدريس إسم "توت" (وتكتب تحوت Thot مع عدم نطق حرف الحاء أو الh) وكذلك إسم "هرمس الهرامسة" (من أرميس أوترميس باليونانية) وتعني كوكب عطارد. لأنه كان أول

من كلم رجال الدين عن الكواكب السماوية وحركتها، وعلم النجوم وسيرها، وعن الليل والنهار، لأن الله أفهمه أسرار الفلك وعدد السنين والحساب (الإسراء: ١٢) كما أسلفنا .

ومن أقوال إدريس المأثورة :

- ١- إذا دعوتكم الله فأخلصوا النية، وكذلك الصيام والصلوات ففعلوا .
 - ٢- حب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أبدا .
 - ٣- تجنبوا المكاسب الدنيئة .
 - ٤- لا تحلفوا كاذبين، ولا تهجموا على الله باليمين، ولا تحلفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم .
 - ٥- لا تحسدوا الناس على مؤتاة الحظ ، فإن إستمتعهم به قليل .
 - ٦- لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الإنعام على خلقه .
- وبمضي الزمن، نسي المصريون القدماء تعاليم إدريس (أو توت) ودعوته، وارتد معظمهم إلى الشرك بالله وعبادة الأوثان. ولحقت البقية الباقية المؤمنة من بني إدريس المقيمين بوادي نهر النيل، بقومهم بأرض ما بين النهرين، ومن نسلهم جاء نبي الله " نوح " عليه السلام (نوح بن لامك بن متوشلح بن إدريس).

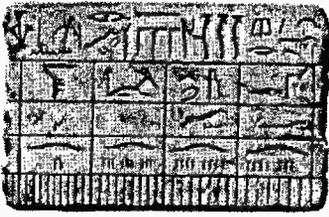
ولكنهم لم ينسوا توت بشخصه، ورفعوه الي مصاف آلهتهم آنذاك. بل وعبده كإله للقمر، ورب للحكمة (أى العلم). وكان رمزه الطائر أبو منجل (إيسيس Ibis) بمنقاره الذي يشبه القلم حالياً (شعار كلية العلوم بجامعة القاهرة حالياً). ولذلك كان يحنط هذا الطائر بعد موته تكريماً لما يرمز له من معاني سامية عندهم .

التقويم المصرى القديم

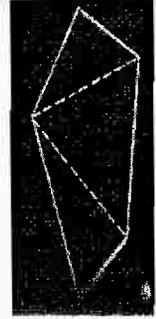
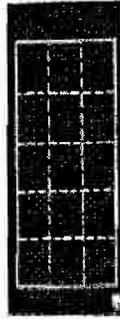
الفصول المناخية	شهور السنة الميلادية	الفصول الزراعية	شهور السنة المصرية	أمثال شعبية
الخريف (٢١) سبتمبر	٩/ سبتمبر	فيضان	١/ توت	رية ولا تفوت (أى لا تدع الفرصة تفوت).
	١٠/ أكتوبر		٢/ بابة	إدخل وإقفل البوابة.
	١١/ نوفمبر		٣/ هاتور	أبو الذهب المنثور (القمح والحبوب).
الشتاء (٢١) ديسمبر	١٢/ ديسمبر	بذر	٤/ كيهك	صباحك مساك أو تشيل إينك من فطارك تحطها فى عشاك.
	١/ يناير		٥/ طوبة	تخلى الصيبة كركوبة.
	٢/ فبراير		٦/ أمشير	أبو الزعابيب يخلى الجلد على الحصير.
الربيع (٢١) مارس	٣/ مارس	حصاد	٧/ برمهاث	روح الغيط وهات.
	٤/ أبريل		٨/ برمودة	دق بالعمودة (شهر الطحين).
	٥/ مايو		٩/ بشنس	إكنس الغيط كنس (شهر الدرس).
الصيف (٢١) يونيو	٦/ يونيو	فيضان	١٠/ بؤونة	بؤونة الحجر (من شدة الحر).
	٧/ يوليو		١١/ أبيب	طباخ العنب والزبيب.
	٨/ أغسطس		١٢/ مسرى نسىء	تجرى فيه كل ترعة عسرة (أى جافة). (٥ أو ٦ أيام تكميلية)

مصرى - نسيئ (الشهر الصغير). وكذلك باليوم المكون من الليل والنهار (٢٤ ساعة) .

ولقد وجد هذا التقويم منقوشاً في آثار الأسرة الخامسة بعصر بناة الأهرام (بالدولة القديمة) أى منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولقد خلد المصريون إسم "توت" على أول شهور السنة المصرية، وعليه يتخذ هذا اليوم عيداً لوفاء النيل. ومن هنا جاء المثل الدارج القائل: "فى توت لا تدع الفرصة تقوت" أى لا تدع فرصة فيضان نهر النيل تقوت دون رى الأرض .



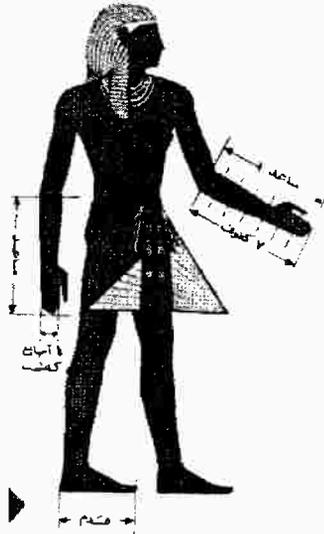
صورة من نقش، ورأسها إله من نيل، توجد
بمحافظة الإسكندرية في مائة من الألف سنة



وجد المصريون أن المثلث الذى تبلغ أطوال أضلاعه ٣، ٤، ٥، عند
تكون الزاوية المقابلة للضلع الذى طوله ٥ عند زاوية قائمة .



لرسم زوايا قائمة ، كان المصريون يرسمون لوسين متساويين يقع
مركزهما على خط مستقيم ، ثم يوصلون نقطه التقاطع بكلتا القوسين .



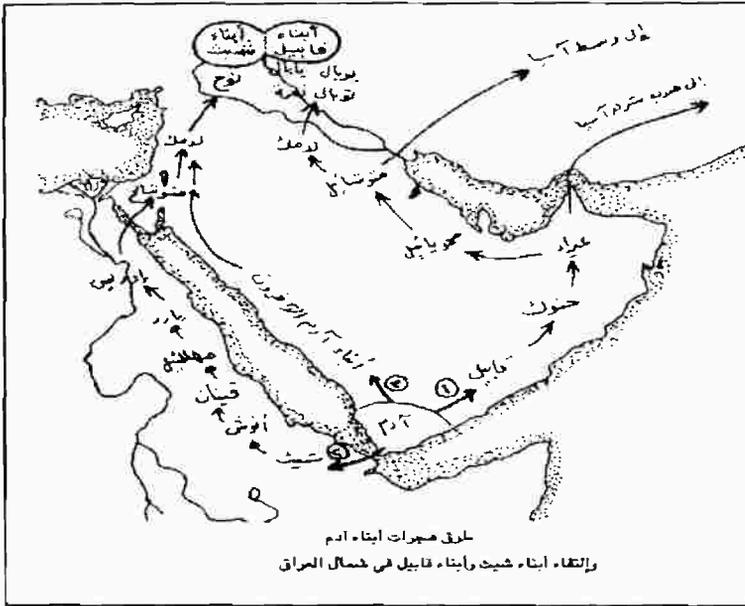
كتاب المقاييس الخفية المصرية قائمة
عن أسرار نك الجسم البشري

كذلك عرف المصريون مقاييس الأطوال والكسور العشرية، وقياس مساحتي المستطيل والمثلث، وبالتالي حساب مساحة أى شكل متعدد الأضلاع غير منتظم، وذلك بتقسيمه إلى عدد من المثلثات. كذلك مساحة الدائرة، ومعرفة العلاقة بين القطر والمحيط .

كذلك توارث المصريون محبة الله والحرية والحياة في سلام داخل الأسرة وخارجها مع الجار والناس. ووضعوا عرفاً (أو أول قانون) في الوجود لتنظيم كافة مرافق الحياة وأسموه " قانون توت " (وأصلاً إلي نبي الله إدريس) حتي تعم العدالة، أي "ماعت" (باللغة المصرية القديمة) البلاد. وكان ذلك قبل بداية التاريخ، أو الأسرة الأولى بحوالي ١٠٠٠ سنة .

يقول الباحثون في المصريات إن كلمة (أوزيريس) باللغة المصرية القديمة (بقصة أوزيريس وإيزيس التي تعبر وبدقة عن عقيدة المصريين القدماء في البعث، أي الحياة بعد الموت، والثواب والعقاب) تعني إدريس بالعربية. ولقد صاغوا حوله أساطير كثيرة توارثوها عبر الزمن بوصفه المعلم الأول للبشر منذ

عصور ما قبل التاريخ. وكان لها الأثر المَحْرَضُ لكل الإنجازات الحضارية العظيمة. من هذا يتبين لنا أنه وراء كل حضارة إنسانية مرموقة نبي أو أكثر .
ويمضى الزمن نُسيت تعاليمه، وارتدَّ معظم أتباعه للشرك بالله. ولحقت البقية المؤمنة من بني إدريس بوادي نهر النيل، بقومهم بشمال أرض ما بين النهرين، ومعهم كان متوشالح وابنه لامك. وهناك رَزَقَ لامك بابنه نبي الله نوح عليه السلام (نوح بن لامك بن متوشالح بن إدريس) .



مما سبق نستخلص مرجحين أن مصر قد حباها الله، سبحانه، باستضافة نبيه شيث لمدة مائة عام تقريباً. وكذلك بأن تكون مسقط رأس وإقامة النبي الصديق إدريس (أخنوخ) لمدة تزيد قليلاً عن ٣٥٠ عاماً (والله بغيبه أعلم). حيث أنهما قد أرسلا إلى من استقر بهم المقام بشمال وادي نهر النيل ليدعواهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، الخالق لكل شيء. وكذلك لحثهم على فعل الخير والتحلى بالأخلاق الحميدة لتشفع لهم عندما يُبعثون للحياة الآخرة والحساب بعد

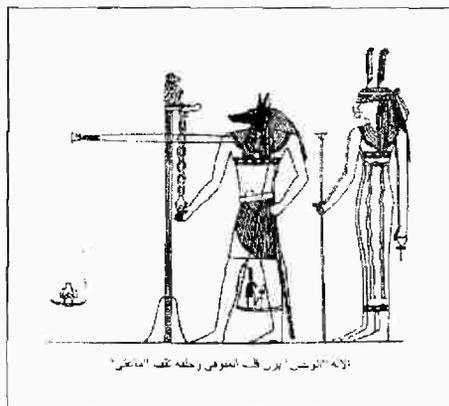
الموت. هذا بالإضافة إلى ما علمهم به إدريس لأول مرة من الكتابة والحياسة والعلوم والفلك والحكمة (أى الطب) .

بعد ذلك ساق الله إليهم وفود الهجرات الحامية (حام بن نوح وإبنة مصر اريم وحفيد الأخير كفتور ايم). ثم أعقبها وفود سامية، الذين أقاموا وانتشروا فى ربوع مصر، واختلطوا بالتدريج بالسكان الأصليين لدرجة الإندماج فيهم. حدث كل ذلك قبل قيام عصر الأسرات أو العصر التاريخي (أى قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. على الأقل) .



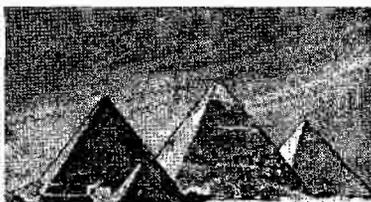
الإله "شو" يفصل بين إلهة السماء "توت" وإله الأرض "جب"

حبى الله مصر، من دون بلاد العالم القديم، بنبيين هما "شيث وإدريس". ثم بنى حام، وبعدهم بنى سام، ولدى نوح عليهم جميعا السلام، لكى يحملوا إليها شريعة الله، ويغرسوا فيها بذور أول حضارة على وجه الأرض. حضارة مبنية على شريعة الحق والعدل والحساب بعد الموت (أى للثواب أو للعقاب) ثم البعث إلى حياة أخرى. على هذا الأساس القويم، قامت الحضارة المصرية القديمة، وبدأ تاريخ العالم من مصر "أم الدنيا" بحق. وظلت هذه المدنية العريقة لعدة آلاف من السنين، كأول وأكبر مدنية فى الدنيا. إذا لم يأت وصف مصر بالمقولة الشائعة، على كل لسان، بأن " مصر أم الدنيا " من فراغ. !٠٠٠!



لقد تعارف المهتمون بالمصريات وعلماء الآثار، علي أن عصورما قبل التاريخ، أو الأسرات المصرية القديمة، لا تزال مجهولة ولم تكتشف بعد. والدليل علي ذلك، أن عصر الأسرات قد أبهر العالم بنهضته العظيمة الأولى في جميع المجالات....! فمثلا :

في مجال الهندسة والإنشاءات : بناء الأهرامات وأبو الهول والمسلات والمعابد الضخمة .





وفي الفكر والمجتمع : مفتاح الحياة، رمز الرب، والديانات، والعمل الطيب في الحياة الدنيا، والحساب في الحياة الآخرة. وضع مبادئ القانون لأول مرة حتي نَعَم العدالة البلاد. إرتقاء الإحساس بالجمال (فلم يكن العطر أو الشعر المستعار أو الكحل أو المرأة والمشط وسيلة للزينة فقط، بل كانت أيضا وسيلة لتوصيل المشاعر والأحاسيس العاطفية إلي الشخص الآخر من الجنسين .



هذا بخلاف ما وصل إليه المصري القديم في المستوي العلمي أو الكيميائي والصناعي للعطور من زيوت ومساحيق ومراهم، الذي بهر العالم الحديث، وجعل كبريات معامل مستحضرات التجميل تكف علي دراسته. وكيف تحولت أوراق وزهور بعض الأشجار والنباتات (مثل: السنط والجميز والتمرحنة والبلسم والريحان والفل والياسمين وقشور البصل الجافة) إلي روائح عطرية معقدة. وعرفوا كيف رُكِبَ الكحل الاسود، أما تركيب الكحل الأزرق... فلا يزال غير معروف... !

وفي العلوم والحكمة : التحنيط ، وحفظ الأشياء، والتلوين، والعلاج الطبيعي .

وفي الفلك والحساب : حساب الزمن بوضع أول تقويم للسنة .

وفي الفن والصناعات الصغيرة : النقش والزخرفة علي الجدران والأواني الفخارية والأخشاب المستوردة الفاخرة (مثل الأبنوس لتصنيع الأثاث، والأرز لتصنيع السفن) والمعادن (وخاصة الذهب) والأحجار الكريمة (الفيروز والمرجان والكهرمان) لصناعة الحلي، والزجاج من الرمل (أي السليكا)، والورق من نبات البردي. ويلاحظ أن من اسم نباته باللغة اليونانية "بابيروس" اشتق اسم الورق، كما أسلفنا .

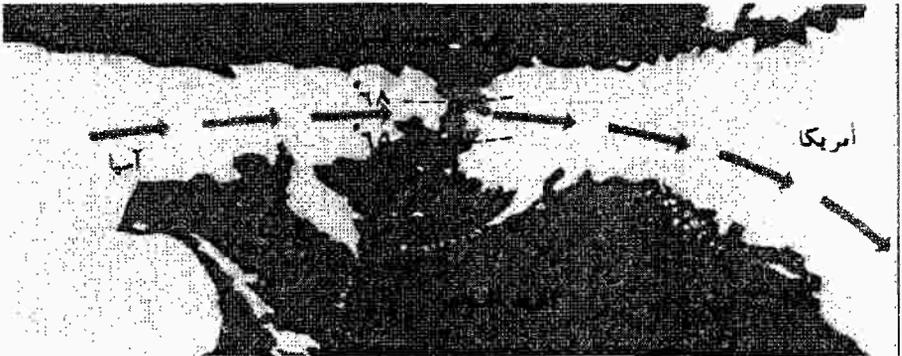
كل هذه العظمة الأولى في التاريخ لم تأت من فراغ، ولكن من المؤكد بعد المرور تدريجيا علي تطورات عديدة، حدثت قبل التاريخ لتعاليم دينية وعلمية سابقة. ومع مرور الزمن توارثتها أجيال بعد أجيال، وطورتها حتي وصلت إلي هذا الرقي المذهل، والذي أمكن تسجيله وتاريخه لأول مرة .

وسبحان الوهاب الرزاق القادر علي كل شي .

إبراهيم و لوط في عصر

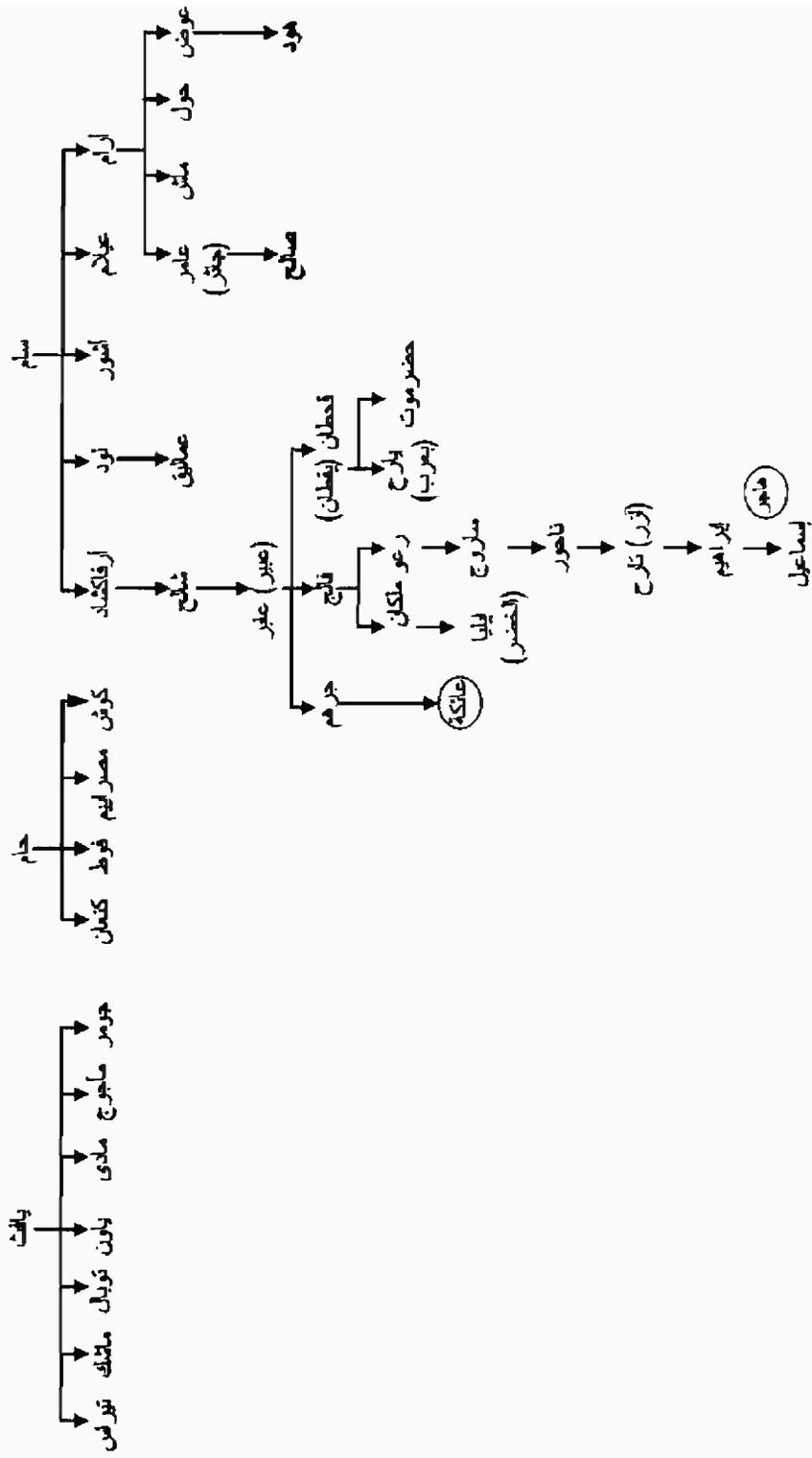
الإمبراطورية المصرية الأولى

ذكرنا فيما سبق، أنه في حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م. أي في النصف الثاني للعصر الحجري المتوسط جيولوجياً (٨٠٠٠-٤٠٠٠ عام ق.م.) إنتشر الساميون (أبناء سام بن نوح والذي أطلق عليه إسم " أبو العرب") في أرض ما بين النهرين (ومنهم جاء إبراهيم و لوط) وفي شمال الشام وفي شبه الجزيرة العربية (ومنهم جاء العماليق والأراميون ونبيا الله هود وصالح). أما الحاميون (أبناء حام "أبو الحبش") فقد إنتشروا في جنوب الشام (كنعان بن حام بأرض كنعان، جنوب فلسطين حالياً) وكذلك في الشريط الساحلي الضيق بشرق البحر المتوسط ومنهم جاء الكنعانيون الذين أطلق عليهم اليونانيون إسم " الفينيقيون " أي أصحاب الثياب الحمراء ، وفي شمال إفريقيا (مصرايم - مصر والبربر) وفي وسط أفريقيا (السودان والحبشة). أما أبناء يافث "أبو الروم" فقد إنتشروا في أوروبا غربا وفي آسيا الصغرى وآسيا شرقا، ثم إلى الأمريكيتين عن طريق مضيق "بيرنج" في الشمال، بين شمال شرق آسيا وشمال أمريكا الشمالية (غالباً قبل انفصال القاريتين) ، والله أعلم .



مما تقدم يتضح أن الأرض المحبوبة (مصر) قد تعرضت لهجرة آسيوية ثانية من الحاميين بعد أكثر من ألف سنة من الهجرة الآسيوية الأولى لنبي الله شيث وأتباعه. ثم بعد ذلك لهجرة آسيوية ثالثة من الأراميين (وهم ساميون) من شبه الجزيرة العربية عبر صحراء سيناء. واندمجوا جميعاً مع سكانها الأصليين، ونتج عنهم المصريون القدماء على هيئة شعب غرست فيه بنور شريعة الحق والعدل والحساب بعد الممات، أي عند البعث إلى حياة الآخرة. حدث كل ذلك قبل قيام عهد الأسرات أو التاريخ، أي من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد على الأقل. بعد ذلك تنفس فجر الحضارة المصرية القديمة، وقامت أول أمة على ظهر الأرض، وبدأ تاريخ العالم من مصر "أم الدنيا" بحق، كما أسلفنا .

شجرة أبناء نوح



بعد مرور فترة طويلة من الزمان، تَرَبُّو على العشرين قرن من طوفان نوح، كانت الوثنية قد سادت العالم القديم. فأرسل الله إبراهيم لإحياء شريعة التوحيد بأرض ما بين النهرين :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِإِلَٰهَةً ۗ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ مَكَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

(الأنعام ٧٤)

"أزر" هو تعريب "تارح" بالبابلية وتعنى "الحمول" .

الإسم الأصلي لإبراهيم هو أبرام (أب + رام ، ويعنى أبو العلاء) بن تارح من سلالة سام بن نوح. وظل كذلك إلى سن ٩٩ فسماه الله أبراهام (عن التوراة) وتعريبه إبراهيم، كما جاء بالقرآن الكريم، ومعناه " إمام الناس" لأنه أرسل ليس لقومه فقط (كالرسول) ولكن لما بعد قومه أيضا من الناس (فالإمام رسول الحاضر وقدوة للمستقبل من الناس). ولهذا فهو أحد أنبياء القدوة لإحياء شريعة التوحيد .

وُلِدَ إبراهيم في منتصف القرن العشرين قبل الميلاد (حوالي عام ١٩٤٧ ق.م.) في عهد الملك "شولجى" الإمبراطور السومرى. وهو يقابل عهد ملك مصر "سنوسرت الأول". وأنزل الله عليه العشرة الأخيرة من صحفه الأولى وحيأ. أوحى الله إلى إبراهيم بأنه سوف يعيد البشر بعد الموت إلى الحياة مرة ثانية يوم القيامة (أى إلى حياة الآخرة) حيث يواجهوا الحساب. فيجزى الله المحسن بإحسانه والمُسئئ بإساعته. ولقد لوحظ أن الناس بالرغم من إقرارهم بأن الله هو خالق السماوات والأرض :

﴿ وَإِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

(الزخرف ٩)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ يَشَأُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٠﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(إبراهيم ١٩-٢٠)

إلا أن أكثرهم لم يؤمن بقدرته على بعثهم إلى الحياة مرة أخرى، بعد موتهم وتحلل أجسادهم إلى عظام وتراب. وجادلوا بالباطل، مع أن الله - جل شأنه - قد أقسم بأن خلق السماوات والأرض لأعظم من خلق الإنسان .

(الإسراء: ٩٩، ٩٨. غافر: ٥٧. يس: ٧٨-٨٣) منها :

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

(الإسراء ٩٨-٩٩)

﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(غافر ٥٧)

كان قوم إبراهيم من الكلدان والسومريين ثلاث شعبي: الأولى تعبد الأصنام، والثانية تعبد الكواكب والنجوم، والثالثة تعبد ملك البلاد. فلما عصا إبراهيم أباه وقومه، وعذبه وحاولوا إحراقه، وأنجاه الله . قرر الهجرة (حوالي عام

١٩٠١ق.م.) من مسقط رأسه "أور" بجنوب أرض ما بين النهرين إلى بلدة "حاران" في الشمال بهضبة الأناضول (تركيا حاليا) وكان يرافقه :

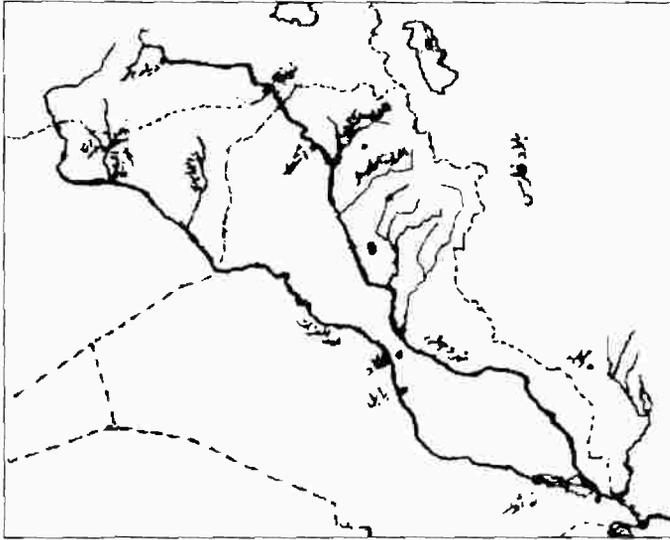
زوجته "سارة" (وهي ابنة أخيه "هاران"، وقد وهبها الله جمالا وتقوى. وكان إسمها الأصلي "ساراي" وبدلته الملائكة مع تغيير إسم زوجها إلى سارة، حينما حضروا للتبشير هما بإبنيهما "إسحق"، عن التوراة) .

وأخو زوجته، وفي نفس الوقت ابن أخيه، لوط وزوجته (كان لوط أول من آمن بدعوة عمه إبراهيم إلى الحق، وبعد ذلك أنزل الله عليه النبوة فيما بعد) :

﴿ فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

(العنكبوت ٢٦)

وأباه "أزر"، وأخاه "ناحور" وزوجته "ملكا"، وقلة من الأتباع .
وهناك مكثوا حوالي خمس سنوات حيث مات أبوه على كفره .



ثم واصلوا السير جنوبا بغرب إلى حلب الشام (حيث أقام إبراهيم وحلب فيها غنمه وبقرته الشهباء، ليشرب كل بدو المنطقة. ولهذا سُميت البلدة بحلب الشهباء). أما منطقة الشام فكان إسمها "شرين" بالأرامية" أو "سريون" بالعبرية ثم "سو-رى" بالبابلية، ومنه جاء إسم سوريا، وتعنى الإقليم الداخلى، لأن فينيقيا (أو لبنان بعد ذلك) كانت تعتبر الإقليم الخارجى، لأنها تقع على ساحل البحر المتوسط. ولما جاء العرب فى تجارتهم بين اليمن فى الجنوب، وسوريا وفينيقيا فى الشمال، فقابلوا بينهما: اليد اليمنى ناحية اليمن واليد اليسرى أو الشولى فى الناحية الأخرى، ومن هنا جاء إسم " الشام " ليشمل سوريا ولبنان .

ثم إتجهوا جنوبا إلى أرض كنعان كما أمره الله، وهناك أقاموا. ولكن لم يطل بهم المقام، بسبب القحط والمجاعة، لجذب الأرض. فانقلوا جنوبا إلى "بيت إيل، أى بيت الله، أو بيت المقدس". بعد ذلك تابع إبراهيم ومن معه السير جنوبا إلى بلدة "حبرون" (الخليل حاليا) حيث أقاموا سنوات قليلة. وهناك إتقى إبراهيم بالصابئين، وسمع لهم، وصحح لهم معتقداتهم التى شابها بعض الخرافات، وحادت عن ما دعا إليه إدريس عليه السلام. ودعاهم إبراهيم إلى عبادة الله الواحد، وعدم الشرك به .

" الصابئون " وبالعامية " الصبئة " (والصابئ، فى العربية، يعنى الخارج عن ملة أبائه، وبالمعجم يعنى " البازغ ") ذكروا بالقرآن الكريم ثلاث مرات: (البقرة: ٦٢. المائدة: ٦٩. الحج: ١٧) منها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(الحج ١٧)

وصابئة بابل في عصر إبراهيم، هم بابليون من نسل قابيل وشيث وإدريس من آشور والشام والحجاز ومصر. وهم يعبدون الإله الذي عبده إدريس ونوح ومن تبعهم. الإله الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير. ويؤمنون باليوم الآخر وبالبعث ويوم الحساب والعقاب. ولقد أستهداهم كذلك، وفي نفس الوقت، عبادة الكواكب والنجوم، كما جاء بالقرآن الكريم، عن إبراهيم قبل هدايته. فلقد إعتقدوا بأن للكواكب فعالية وتأثير. ففتحوا لها التماثيل، ومزجوا بين العبادتين، ولهذا كان شركهم لله سبحانه:

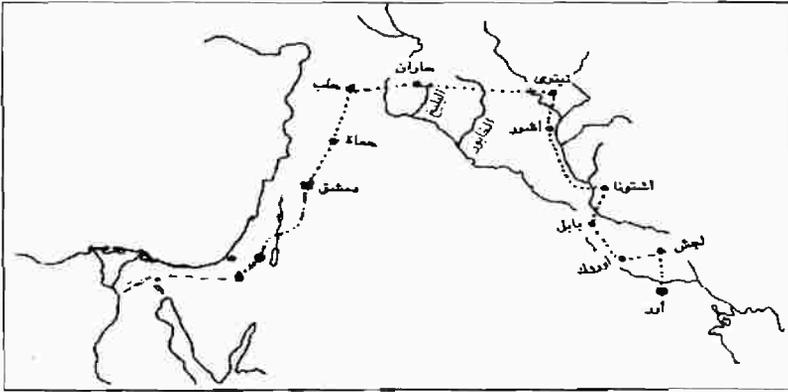
﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(الأعام ٧٨-٧٩)

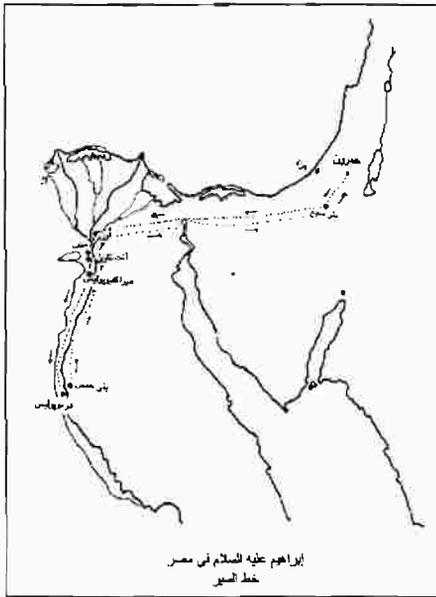
ولقد صادف هذا التوقيت منتصف عصر الأسرة الثانية عشر بمصر. وكانت مصر تعيش عصرا مستقرا ومزدهرا تحت حكم الملك الفاتح العظيم "سنوسرت الثالث". فكانت هذه الظروف فرصة مشجعة لإبراهيم ومن معه لزيارة مصر بلد الحضارة (حوالي عام ١٨٧١ ق.م. وكان إبراهيم قد ناهز ٧٦ سنة وسارة ٦٧ سنة). وكذلك للتعرف على ربوعها، وعلى أهلها وديانتهم، ومحاولة نشر دعوته بها. وهذا ، على الأرجح، كان بوحي من الله سبحانه،

* (وللعلم ، إن البقية الباقية من هولاء الصابئين في العالم، لاتزال متواجدة وتعيش حتى الآن في بغداد وجنوب العراق، حيث كانت "بابل". وهي تسكن بجوار الماء على نهر دجلة (فللماء والطهارة طقوس عندهم). وهم يصومون أياما متفرقة في السنة. ويطلقون لحاهم البيضاء المديبة الطرف، ويشغلون بطرق وتشكيل الفضة. وقيل أن شريعتهم هي ملة إدريس عليه السلام ، وأشركوا عبادة الكواكب إلى عبادة الله. كما أشرك اليهود عبادة "غزير" إلى عبادة الله، وأشرك المسيحيون عبادة "روح القدس" (جبريل) و"عيسى" إلى عبادة الله تعالى.)

لإحياء ما إندثر من ملة " إدريس " بمرور الزمن. ولقد حرص إبراهيم على أن يدعو الناس في كل مكان يحل به إلى نشر شريعة التوحيد. كما كان يحث الناس على الفضيلة ومكارم الأخلاق، والتصدق على الفقراء، حتى تسود المحبة بينهم ولتفتعهم في دار الآخرة. وشدد على عقوبة كل مُخطئ .



خط سير إبراهيم عليه السلام من أور إلى حاران ودمشق ثم مصر



إبراهيم عليه السلام في مصر
خط السير

من المؤكد أن ملك مصر جلس إلى إبراهيم، ورحب به وتجاوز معه، وقد علم مكانته في قومه، فعاملهم على أنهم وندرسولى بعنه الإله. ولذلك إستضافهم، وسمح لهم بالتجول في ربوع البلاد شمالا وجنوبا، حتى مدينة "بنى حسن" (قرب المنيا حاليا) كما أشار التاريخ والآثار. لم تنجح دعوة إبراهيم بدرجة كافية، لوقوف كهنة آمون لها بالمرصاد. فبقيت حبيسة في صدور كل من آمن بها، وهم قلة. وظلت دفينه لمدة تزيد عن قرن ونصف، أى إلى عصر يوسف

عليه السلام. وبعد إنتهاء الزيارة التي إستغرقت حوالى الخمس سنوات، عاد

الوفد بعدها إلى بلدة "حبرون" (الخليل حالياً) بعد أن أغدق عليهم ملك مصر المال والماشية. كما أهدى سارة إحدى جواريه المصريات "هاجر" (قيل أنها كانت أميرة بإحدى مقاطعات مصر، وهزَم الملك قومها، وأسرها) .

وفي الطريق إلى حبرون، مرَّ الوفد ببلدة بأرض أبي مالك بفلسطين سميت فيما بعد بإسم "بئر سبع". (لأن إبراهيم حفر بها بئراً، ودفع فيه لصاحب الأرض سبع نعاج من الغنم) .

وفي حبرون إفترق لوط ومن معه عن إبراهيم وذهب إلى قوم "السادوم وعامورة" بجنوب البحر الميت (راجع الفصل الثاني، صيحة قوم لوط والبحر الميت) حيث أرسله الله نبيا لهم. وفي حبرون أيضاً، زوجت سارة (العجوز العاقر) زوجها الشيخ من هاجر الفتية (٣٣سنة) ، لما رأت مدى تشوقه للولد. فأنجبت له (وكان يناهز السابعة والثمانين) بكره "إسماعيل" أبو العرب ، والجد الأكبر لمحمد رسول الله، وحتى تتواصل الأجيال. وإسم "إسماعيل" هو تعريب "يشمعي" بالعبرية (يشمع+ إيل، ومعناه يسمع+ الله أو الله السميع، كما جاء بالقرآن الكريم) :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ
الِدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ (إبراهيم ٣٩)

لقد كانت عطية ملك مصر لسارة، نتيجة إستعطاء إبراهيم ربه منذ خمسة وثلاثين سنة آنذاك ، وحين بدأ هجرته :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴿

(الصافات ٩٩-١٠١)

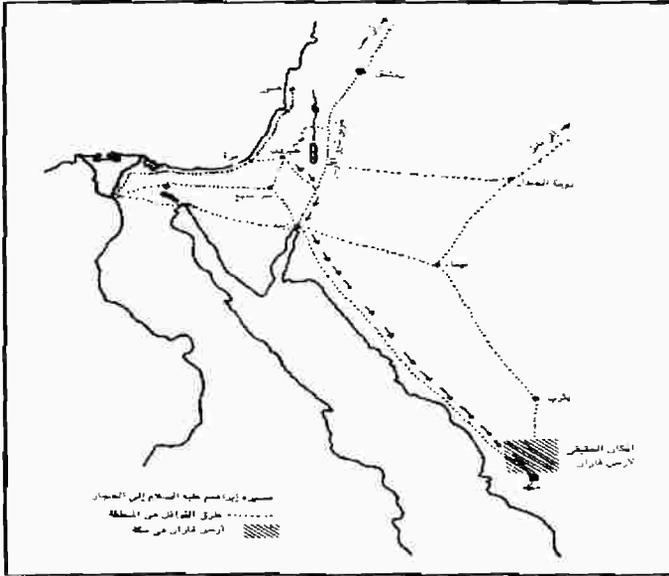
لم يخلق الله - سبحانه - إسماعيل ليُفرح قلب أباه في شيخوخته ويحقق له أمنيته فحسب، بل خلقه أيضا ليحمل هو وأصغر أحفاد أحفاده " محمد " (صلى الله عليه وسلم) لواء دعوة التوحيد للدين الخاتم " الإسلام " بعد حوالى ٢٥ قرنا. ٠٠٠ سبحان الله! ٠٠٠

وذات يوم قرر إبراهيم أن يُبعد زوجته ورضيعها، ذو العام الواحد، عن حبرون. وكان في حيرة أين يذهب ٠٠٠ فما كان يرضى أن تعود هاجر إلى بلدها مصر مهد الوثنية والضلال بعد أن آمنت. ولا لإبنه أن يشبَّ مع عبدة الأرباب. فأمره الله تعالى بالإتجاه راجعا ناقته إلى الحجاز، وهو لا يدري بأنَّ هجرة هاجر وإبناها هي بداية لبناء أول بيت لله بالأرض، وقيام شعب جديد، ودين خاتم لجميع الأديان السماوية. سبحان عالم الغيب ٠٠٠

أما التوراة، فقالت أن سبب ترحيل هاجر وإبناها هو غيرة سارة من أن يكون لإبراهيم ولد من غيرها تراه معها في البيت. وقيل أيضا أن هاجر قد إتخذت هذه الهجرة حلا لتلافي الإحتكاك مع سارة (البخارى عن ابن عباس عن الرسول، صلى الله عليه وسلم). وأخيرا إستقر بإبراهيم وأهله المقام عند شجرة كبيرة بواد، خال من الإنس والزرع والماء، ببيرة "فاران" (إسم عبرانى لجبال مكة). وهو الوادى الذى تحته حاليا بئر زمزم، وبه مكة والبيت الحرام. وهناك، أمره الله أن يترك هاجر وإسماعيل ومعهم بعض الزاد والماء. وكانت هاجر فى غاية الإطمئنان بعد ما علمت بأن الأمر جاء من الله سبحانه، وقالت : إذا لا يضيعنا. ثم رحل إبراهيم عائدا إلى حبرون بأرض كنعان وهو يدعو الله أن يجعل بهذا المكان بيتا له سبحانه لتقام منه الصلاة، مما يجعل الناس ذوى القلوب الرحيمة الواجفة تتدفق فى شوق إليهم حاملة الثمرات والخيرات :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(إبراهيم ٣٧)



لم تكن الكعبة (بشكلها الحالي) في هذا الوقت قد بنيت بعد. لكن كانت هناك حكمة إلهية في هذا التصرف لكي يتم بناء البيت الحرام في مكة بعد ذلك. ويكون لإسماعيل شرف مشاركة أبيه في بنائه .

أما هاجر المؤمنة، لما علمت أن الله أمر زوجها إبراهيم بالرحيل عنها، أدركت أن الله لن يتخلى عنها وعن ابنها. ولما انتهى الماء، وأحسّت هاجر وإبناها بالعطش الشديد، وكانت الشمس قوية ٠٠٠ هرولت تبحث عنه بين قمى جبلى الصفا والمروة. فعلت ذلك سبع مرات دون جدوى .

وهنا أدركتها رحمة الله، وأرسل لها ملكا فجرّ تحت قدمى إسماعيل ماء بئر زمزم* ومن الناحية العلمية، فإن بئر زمزم تتواجد بين صخور نارية ومتحولة

* سُميت البئر بهذا الاسم، لأن هاجر حين تفجرت الماء، كانت تخوض بيديها وتعرف منه فى قربتها فى حرص، وهى تقول زُمى زُمى يا مباركة .

شديدة التبلور . وهي تستمد ماءها من تشققات شعرية تمتد لمسافات بعيدة حول وخارج مكة المكرمة من جميع الجهات، ولهذا فهي مجهولة المصدر. وعلى كل حال، فماؤها قد تدفق على مدى أكثر من ٣٨ قرناً، ولا يزال حتى الآن... سبحان الله...! وهذا يؤكد وصف المصطفى لها بأنها نتجت عن طرقة شديدة :

[هي هزيمة جبريل وسقيا إسماعيل". وبأن ماءها خير ماء على وجه الأرض، فيه طعام طعم وشفاء سقم]. وقوله: [ماء زمزم لما شرب له].

ومع مضي الزمن وفدت إلى " فاران " من الجنوب قبيلة " جُرْهُم " من اليمن. ثم قبيلة " العماليق " من وسط شبه الجزيرة. وأقاموا بجوار البئر، بعد أن سمحت هاجر لهم بذلك (العماليق نسل لود بن سام بن نوح). واخضرت الأرض وعمّر الوادي وتحققت دعوة إبراهيم عليه السلام .

حتى ذلك الحين، لم يكن للمؤمنين بالأرض بيت لعبادة الله (سبحانه وتعالى). وكانت هناك بيوت متفرقة لعبادة الأصنام أو التماثيل التي ترمز لآلهة متعددة. فأصدر الله أمره إلى إبراهيم لبناء البيت الحرام (الكعبة، وسمى المسجد الحرام بعد ظهور الإسلام) ليكون بيتاً لله في الأرض إلى يوم القيامة. وهنا يحكى ابن عباس عن الرسول ، قال :

[قال إبراهيم : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني ؟ قال: وإعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى تل مرتفع على ما حوله (خشعة، كما أسلفنا). قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت. فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (مقام إبراهيم حالياً، وقد طبع عليه طبعة أو بصمة واضحة لقدمي سيدنا إبراهيم، وهو موجود مقابل باب الكعبة.) فوضعه له، فقام عليه وهو

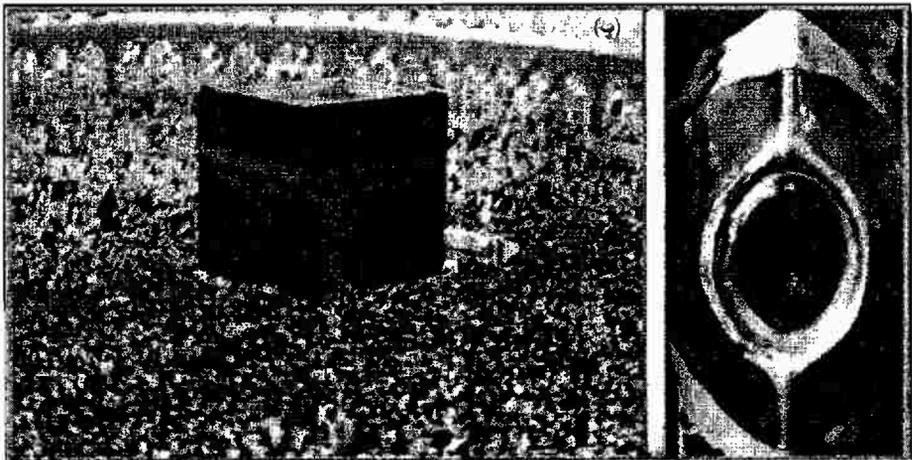
* نسبة إلى جرهم أخو فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح. ويعتبر فالج أبو جد جد إبراهيم .

يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة".

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿١٧﴾

(البقرة ١٢٧)

واستجاب الله لدعائهما، وكان إبراهيم أول من سمّنا مسلمين. أمر الله تعالى إبراهيم أن يخبر الناس بأنه بنى أول بيت لعبادة الله، وأن عليهم أن يقصدوه للنسك .



(تصوير: ابن إبراهيم)

(ب) الطواف حول الكعبة المشرفة وهي أول

بيت وضع للناس في الأرض ..

(١) الحجر الأسود في الركن

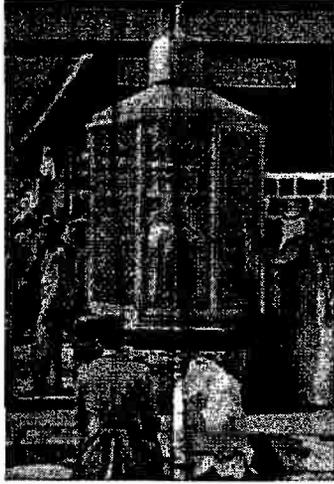
الجنوبي الغربي من الكعبة المشرفة.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١١﴾

(آل عمران ٩٦)

وطلب إبراهيم من الله أن يريه المناسك التي ينسكها. وشرّف الله بيته الحرام، فأمر الناس بالحج إليه والطواف حوله، وأن يستغفروا فيه

خالقهم. وجعل الصلاة فيه أجراها أعظم مائة ألف صلاة في أى مسجد آخر. ولقد وصف الله بيته بأنه سيكون كثير الخير والنفع لمن حجه أو إعتمره أو عكف فيه للعبادة، أو طاف به. وأنه بذاته مصدر هداية للعالمين .



كانت الكعبة عبارة عن غرفة مكعبة البنيان تقريبا، ومن هنا جاء أسمها (ارتفاعها حوالي خمسة أمتار ونصف متر، وسقفها تحمله ثلاثة أعمدة من خشب العود الوردي). وهي مبنية من الحجارة الصماء الرمادية اللون. وتقع الكعبة في وسط الحرم، ولها أربعة أركان: ركن الحجر الأسود (أو الأسود) بين الشرق والجنوب. والركن الشامي بين الشرق والشمال. والركن العراقي بين الغرب والشمال. والركن اليماني بين الغرب والجنوب. ويقع باب الكعبة والملتمزم بين

ركني الحجر الأسود والشامي، أي في اتجاه الشرق مباشرة. وأمام الباب يتواجد مقام إبراهيم (وبه الحجر الذي كان يقف عليه سيدنا إبراهيم أثناء بنائه جدران الكعبة وبسطحه تظهر جليا بصمة قدميه). أما المنطقة الدائرية بين الركنين الشامي والعراقي والمواجهة للشمال تماما، فهي تسمى "حجر إسماعيل". بذلك تكون أضلاع الكعبة موجهة بدقة تجاه الاتجاهات الأصلية الأربعة. من الحجر الأسود يبتدأ الطواف وهو بمثابة تحية للمسجد. والحجر الأسود حجر صقيل بيضي الشكل غير منتظم، ولونه أسود يميل إلى الحمرة، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء. ويقال أنه نوعا من نيازك السماء. كما يقال أن السبب في تقديسه نتج من ارتباطه بحدث مقدس، وهو أن الله قد أرسله بواسطة سيدنا جبريل إلي إبراهيم الذي قبله ثم وضعه في مكانه بجدار الكعبة، تنفيذاً لأمر ربه ليكون علامة يبدأ منها الطواف. وأن المصطفي، صلي الله عليه وسلم، وقف عنده وقال :

[إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، و قبْلَهُ] (عن البخاري و مسلم) .

يعتبر الطواف حول بيت الله الحرام من أفضل وأهم المناسك في الحج والعمرة. فلقد قرره الله لحكمة تدل على وحدانيته، سبحانه وتعالى، ولكي يكون رمزا لوحدة عبادته. فكل شيء في الكون يعبد الله خالقه، ويسبح له (عن طريق هذه الحركة الدائرية، وهي الطواف) إبتداءً من أصغر وحدة للمادة، وهي الذرة، التي تتكون من نواة موجبة الكهربية، وتدور (أو تطوف) حولها الكهارب (أي الإلكترونات) سالبة الكهربية في إتجاه عكس دوران عقارب الساعة، في سبعة مدارات تتطابق مع عدد الأشواط السبعة في الطواف حول الكعبة المشرفة. وبالمثل تدور (أو تطوف) الأرض حول الشمس مرة كل عام، كما ذكرنا. والقمر يطوف حول الأرض. والشمس ومجموعتها من كواكب وأقمار ومدنبيات تطوف حول مركز مجرتنا "نرب التبانة أو الطريق اللبني أو جالاكسي" (حيث جالا باليونانية تعني لبن). فمجرتنا مثلا، تتشكل علي هيئة قرص كبير جدا في مركزه نواة، وهي تضم نحو ٢٠٠ ألف مليون جرم موزعة بشكل خاص : منها النجوم (والشمس) الساخنة المستعرة، والكواكب (والأرض) والأقمار التي بردت، والجميع يتحركون كل في مداره (أو مساره) الخاص به دون سقوط أو تصادم أو انفلات في الفضاء الواسع، نتيجة لتماسكها الشديد إلي بعضها البعض (أو علميا نتيجة تجاذبها نحو نواتها في تساوي في الشدة، وتضاد في الإتجاه، مع قوي الطرد المركزية لدورانها حول نواتها). بهذا تعدد الطائفون في إتجاه واحد (من اليسار إلى اليمين) وتوحد المطوف به. وهذا هو نظام الله الذي خلق عليه الكون كله. ولهذا جعل الله، خالق كل شيء، الطواف حول بيته الحرام منذ زمن إبراهيم (أى من أكثر من ٣٨ قرنا) إلى يومنا هذا، ركنا أساسيا من أركان الحج والعمرة، لكي يُدرك الإنسان وحدة النظام في الكون (أو سنة الله في الكون) وكدليل على وحدانية خالقه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الحج ٢٦)

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الحج ٢٩)

وفى حبرون بعد ذلك (حوالي عام ١٨٤٤ ق.م.) عندما كان إبراهيم يناهز ٠٣ سنة وإسماعيل ١٦ سنة، تحققت مكافأة الله إلى سارة على تضحيتها وحبها لزوجها، وإيمانها بالله، وكثرة صلاتها ودعائها، فولدت هي الأخرى لإبراهيم غلاما ثانيا ذى علم غزير، وأنه سيكون نبيا من الصالحين، وأن الله بارك عليه :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ وَنَشَرُوهُ بِغُلْمٍ عَلِيمٍ ﴿٣٠﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَاِصْبَكَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الذاريات ٢٨-٣٠)

وسمته الملائكة "إسحق" ومعناه الضاحك، وصفا لما فعلته سارة عندما سمعت بشرى الملائكة لإبراهيم . كما بشرت الملائكة إبراهيم أيضا بحفيد من ابنه إسحق هبة زائدة اسمه "يعقوب" :

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

(هود ٧١)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(الأنبياء ٧٢)

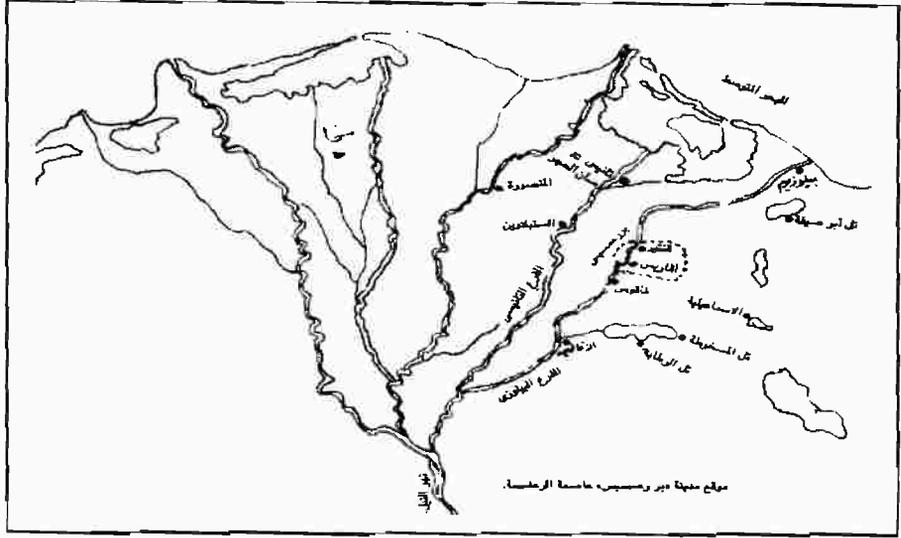
يوسف و يعقوب في عصر حكم الهكسوس لمصر

في نهاية عصر الأسرة الثانية عشرة بالدولة الوسطى، تدهور حال البلاد تدريجياً بسبب الصراع بين آخر ملوكها مع حكام الأقاليم الذين قويت شوكتهم. واستمر هذا الحال في عهد الأسرتان المتزامنتان الثالثة عشرة (عام 1787-1634 ق.م.) بشرق الدلتا والصعيد وعاصمتها "طيبة". والأسرة الرابعة عشرة (عام 1787-1603 ق.م.) بغرب الدلتا وعاصمتها "إكسيوس" (سخا حالياً). وفي هذه الفترة، بدأت بعض القبائل الآسيوية المجهولة الأصل في التسلل البطئ إلى منطقة شرق الدلتا، للإستيطان والمعيشة في هدوء وسلام، وبموافقة المصريين. وعمل أفرادها في مختلف الحرف وفي التجارة. ومنهم من تزوج من مصريات واستوطنوا مدينة "حوت وعرت" (أو أواريس باليونانية، وحالياً تل الضبعة جنوب قنتر بكيلومترين) في شمال شرق الدلتا .

بعد ذلك قامت هذه الأقوام (التي أطلق المصريون عليها إسم " حقا - خاسوت" وتعنى "حكام - أجانب" وحرفت إلى "هكسوس"، كما لقبوا بالملوك الرعاة) بالسيطرة على المنطقة، وأعلنوا مدينة "أواريس" عاصمة لهم. ثم زحفوا، بعد ذلك، تجاه الجنوب. وأقاموا الأسرتين المتتاليتين الخامسة عشرة ثم السادسة عشرة الهكسوسيتين، على حساب الأسرة الثالثة عشرة المصرية. بذلك شملت الأسرتان الهكسوسيتان شرق الدلتا ومصر الوسطى حتى بلدة إخميم شمال قنا. أما سلطانها، في الحقيقة، فقد شمل مصر كلها. وسمحوا لملوك الأسرة الثالثة عشرة بالبقاء في الطرف الجنوبي، مع دفع الجزية المقررة عليهم .

بعد ذلك جاءت الأسرة السابعة عشرة، وأشرك فيها ملوك الهكسوس، أمراء مصريين معاصرين من طيبة في الحكم، ومنهم إنطلقت شرارة الثورة. لم يطمئن المصريون للهكسوس طوال حكمهم لمصر (أى حوالى 200 سنة) وظلوا ينظرون إليهم نظرة الكره والإحتقار (ويلاحظ أن هذا الشعور لايزال مستمراً حتى يومنا هذا) وهم مصممين على طردهم من البلاد أذلاء مدحورين، إلى أن تم لهم ذلك

على يد الملك "أحمس" (أمير الأرضين) ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة المصرية، ومعلنا بداية الدولة الحديثة بإقامة الإمبراطورية المصرية الثانية .



وفى عهد أحد ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية دخل مصر يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم (عليهم جميعا السلام، فهم من أنبياء القدوة). وكان أبوه يعقوب، بأرض كنعان، يتبع شريعة أبيه وجده. ولقد حبا الله يعقوب بالصلاح والعلم الواسع، الذي علمه إياه عن طريق الوحي :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(يوسف ٦٨)

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(يوسف ٨٦)

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۗ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(يوسف ٩٦)

ولما اكتملت ليعقوب النبوة، وكان يقيم ببلدة حبرون (الخليل حاليا) أوحى الله له بشيئين :

الأول - أن يأمر قومه بنبذ عبادة الأصنام والتطهر :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(إبراهيم ٣٥)

وأن يبنى معبدا للرب ويسميه " بيت إيل " (أي بيت الله). وفي هذا المكان، بعد ذلك، بنى سليمان هيكله وسُمِّيَ "أورشليم" (أي مدينة السلام)، ثم عُرف فيما بعد بـ"بيت المقدس والقدس".

والثاني - أن يُغَيَّرَ إسمه من يعقوب الذي أسمته به الملائكة، يوم أسمت أباه " إسحق " إلى " إسرائيل " أو " إسرائيل " بالعربية (وفي هذا يتفق القرآن والتوراة) :

﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾

(هود ٧١)

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(الأنبياء ٧١-٧٢)

ومعنى كلمة "إسحاق" فى العربية (كما ذكرنا) يقابلها فى العبرية "يصحاق" وتعنى "يضحك"، وكانَّ ضَحِكِ سارة، زوجة إبراهيم، كانت مناسبة يُصاغ منها إسم المولود المُبَشَّر به . أمَّا كلمة يعقوب فتعني العاقب لأخيه التوأم " عيسو " فى ولادتهما، أو العاقب لأبيه إسحق (أى هبة زائدة لأبيه، وحفيد لجدّه إبراهيم). ومعنى كلمة "يسرا+إيل" فى العبرية هو "مصارع الله".!٠٠٠

وهذا التفسير غير معقول، ومن القرآن "عاهد+الله" (أى أعطى الله عهدا). فلقد كان يعقوب يعانى من مرض يعتريه فى الليل ويقلقه عن النوم. وهو ألم فى مجرى العصب الوركى (يعرف بعرق النساء أو الأسس). لذلك أخذ عهدا على نفسه، تقربا إلى الله، لئن عافاه الله، لياكل لحم ورك الإبل. وكان هذا الطعام من

أحب الأكلات إليه (أى أنه تعهد على نفسه، فقيدته الله به). وجاءت الآية ٩٣ بسورة آل عمران مفسرة لمعنى "إسرائيل" أى أن الله حرّم على يعقوب الذى تعهد (أو نذر) بتحريمه على نفسه .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(آل عمران ٩٣)

أنجب إسحاق بن إبراهيم من زوجته رفقة، إبنة عمه بتوئل، وهما بأرض كنعان (فى حوالى عام ١٧٩٣ ق.م.) ولدين توأم هما العيص (أو "عيسو" الذى إشتهر بإسم "إدوم" أى الأحمر) ويعقوب على التوالى. ولما كبرا، حدث خلاف بين الأخوين التوأم، وخشيت أمهما على يعقوب أن يبطش به عيسو. فأشارت على يعقوب أن يذهب لزيارة خاله "لابان" الأرامى المقيم بقبيلة "فدان آرام" المتمركزة فى بلدة "حاران" بأرض الكلدانيين فى شمال أرض ما بين النهرين (على الحدود السورية التركية حاليا) وكان قد ناهز الثلاثين. وهناك خدم خاله فى رعى الأغنام سبع سنين، وزوجه إبنته الكبرى "ليئة أو ليا" بدلا من الصغرى الأجل "راحيل" التى كان يريدھا. وصبر يعقوب، وخدم خاله سبع سنوات أخريات، حتى يجمع بين الأختين (إستثناءً وقبل التحريم). كما تزوج أيضا، فيما بعد، جارية راحيل "بلها"، ثم جارية ليئة "زلفا". والسبب فى ذلك (فى رأيي ولا عجب،... والله أعلم) حماية الله له (وهو نبي العبرانيين القادم، كما أسلفنا) من الخطيئة المحتملة، نتيجة المعيشة المختلطة للأسرة الواحدة فى ذلك الزمن. وأنجب يعقوب من زوجاته الأربعة ١٢ ذكرا عُرفوا بـ "الأسباط". ولقد وُلِدوا جميعا بقبيلة "فدان آرام" فى بلدة حران إلا ولده الأصغر "بنيامين" فقد ولد بعد ذلك فى فلسطين. ولما إنتهت مهمته، التى إستغرقت حوالى عشرين عاما،

ترك حران وعبر بأهله نهر الفرات إلى الشام ثم جنوباً إلى أرض كنعان (فلسطين) وكان قد ناهز الستين تقريباً. وكان يحتكم على مال ونعم كثيرة .

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(البقرة ١٣٦)

وكان أصغر الأسباط سنا هما " يوسف " ثم " بنيامين " من زوجته الأخيرة " راحيل"، والتي توفيت وهي تلد بنيامين. لذلك زاد حب يعقوب لهما عن بقية أولاده، وخاصة ليوسف لجماله الربّاني الأخاذ في الصورة والخلق. مما أثار غيرة إخوته منه، وبالتالي حقدهم عليه لدرجة التفكير في الخلاص منه بإلقائه في البئر، وكانت هذه هي محنته الأولى. ولقد أنزل الله له سورة بإسمه بالقرآن الكريم. هذا بالإضافة إلى أنه أحد السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله :

[رجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله] عن الرسول الكريم.

ولقد وصفه القرآن الكريم بـ " الصديق " :

﴿ يٰٓيُوسُفُ أَيُّهَا الصّٰدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(يوسف ٤٦)

وذكر إسمه فيه ٢٧ مرة (٢٥ مرة بسورة يوسف، ومرة واحدة بسورة الأنعام: ٨٤، ومرة واحدة بسورة غافر: ٣٤) .

وكان المصطفى إذا ذكر يوسف قال :

[إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . فهو نبي وأبوه نبي وجده نبي وجد أبيه نبي عليهم جميعا السلام] .

ولد يوسف في حوالي عام ١٧٤٢ ق.م. (أى بعد حوالي ٢٠٥ سنة من مولد جد أبيه إبراهيم). وتخلص منه إخوته غير الأشقاء (أبناء ليئة) غيرة منه، كما أسلفنا، بإلقائه في جب بئر. وعثرت عليه قافلة عابرة في طريقها إلى مصر، عن طريق الصدفة. وبيع في سوق العبيد بثمن بخس لعزير مصر (نائب الملك) في ذلك العهد (عهد الهكسوس، كما أسلفنا) وكان يقيم في مدينة "أواريس" بشرق الدلتا (عاصمة الهكسوس) :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ خَسِيسٍ ذَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(يوسف ١٩-٢٠)

أحب عزيز مصر يوسف، ورباه وعلمه كإبنه لأمانته وحسن خلقه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۗ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۗ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(يوسف ٢١)

اختلف العلماء على إسم الملك الهكسوسى الذى دخل يوسف مصر فى عهده....؟! والأرجح عندنا، أنه الملك "خيان" وبالعربية "ريان" بالأسرة الخامسة عشرة (حوالى عام ١٧٢٥ ق.م) .

كبر يوسف ولما بلغ أشده (أى سن الثلاثين) علمه الله تفسير الأحاديث والرؤى وأتاه حكما وعلما :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(يوسف ٢٢)

بعد ذلك سُجن ظلماً بسبب محنته الكبرى (وتعتبر محنته الثانية) مع امرأة العزيز، عندما راودته عن نفسه، وقال "إني أخاف الله"، وتسبقاً إلى باب الغرفة، التي كانت قد أغلقت من قبل، فشقت قميصه من الخلف وهي تمنعه من الخروج، وكان هذا سبب براعته بعد ذلك :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۗ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۗ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ۖ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ۗ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ۖ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْمَا سَيْدَهَا لِدَا الْبَابِ ۗ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ۖ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۗ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ۖ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ ۖ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۗ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ۖ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِكُمْ ۗ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(يوسف ٢٣-٢٩)

كانت معرفة تفسير الأحلام تعتبر من العلوم المحببة في هذا العصر، لذلك كان لمفسري الأحلام منزلة كبيرة. وكان هذا هو السبيل الإلهي الذي مكّن يوسف ليرتفع من رق العبودية إلى منصب عزيز الأرض (أي مصر) والمتصرف في أمورها وخزائنها :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَعْنِي بِهَذِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۗ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۗ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(يوسف ٥٤-٥٦)

وخاصة بعد أن سرّ الملك ورجال الدولة بتأويل يوسف لرؤيا الملك عن القحط المنتظر حلوله بمصر والبلاد المتاخمة لها. وإرتياحهم كذلك لما يدعو إليه من شريعة التوحيد التي وصلت إلى قلوبهم. كما لاحظوا أن يوسف وهو في سجنه، ورغم ما لقيه من ظلم وإيذاء، لم يبخل بعلمه في تفسير الحلم المفزع للملك، وبكل أمانة وصدق وبدون مقابل. بل وأنه قدم النصيحة الغالية والحل السليم، الذي يجب إتباعه في مثل هذه الكوارث الطارئة، وإنقاذ البلاد (وهو تخزين القمح في سنابله لحفظه. ولقد أثبتت التجارب العلمية والعملية الحديثة، أن هذه الطريقة هي الأفضل للحفاظ على القيمة الغذائية الكاملة للمحصول، وكذلك على قوته الحيوية وقدرته على الإنبات والنمو والإثمار لعدة سنوات). ويحضرنا هنا الحديث الشريف: [من سئل عن علم فكتمه، أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار]. صدق رسول الله .

ولقد أيد التاريخ، فيما بعد، وبعض آثار الأسرة ١٧ حدوث جذب سابق. وعليه أُطلق سراح يوسف فوراً من سجنه، وأصبح لديهم المكين الأمين. ولولا عناية الله ورحمته لكان من الهالكين .

لقد لعب يوسف دورا مهما في تاريخ بني إسرائيل (أو يعقوب) حيث أنه هو الذى مهد لدخولهم مصر بسبب القحط. فأوى إليه أولا شقيقه بنيامين، عن طريق حيلة أوحى بها الله إليه. وهى تتلخص فى أن إخوة يوسف لما حضروا من أرض كنعان إلى مصر لشراء بضاعة بسبب القحط الذى أصاب كل المنطقة، إستطاع يوسف (بعد تزويد إخوته، الذين لم يتعرفوا عليه، بالبضاعة التى طلبوها بسخاء وبثمن زهيد) أن يشترط عليهم إحضار أخاهم الباقى معهم (وهو شقيقه الأصغر، "بنيامين" لأمه "راحيل") فى السفرة القادمة، لكى يزيد فى إكرامهم، وإلا فلا كيل لهم عنده، ولا يأتون إليه. ولما علم يعقوب بذلك، تخوف من شرط الوزير المصرى، خاصة وأن القحط كان شديدا، مما جعله يتروى فى قراره بالنسبة لسفر بنيامين مع إخوته فى المرة القادمة. وأخيرا وافق على سفره بعد أن أفسموا على أن يعودوا به. وأوصى يعقوب أولاده ألا يدخلوا مصر جميعا من باب واحد، أى فى كوكبة واحدة، بل يدخلوها من أبوابها المتفرقة (وكانت حينذاك أربعة أبواب) .

وكان طلبه هذا لحاجة فى نفسه، وهى شفقة الأب على أبنائه :

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَّا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا ۗ وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لَمَّا عَلَّمَنَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(يوسف ٦٧-٦٨)

ذكر المفسرون أن الوصية من باب الحذر من العين والحسد، مع الإعتقاد الراسخ بأن كل شىء بقضاء الله وقدره. لكن أكثر الناس لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أن التوكل على الله لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب المشروعة .

فالحكم لله وحده، وعليه فليَتَوَكَّلِ المتوكلون . والحسد موجود وأثره لا شك فيه ، وإلا لما طلب القرآن الكريم من الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يلجأ إلى ربه ويستعيذ به من شر حاسد يتمنى زوال النعمة عن غيره :

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

(الفلق ٥)

وفى الحديث الشريف :

[العين حق ، العين تُدخل الجمل القدر والرجل القبر . ولو كان شيء يسبق القدر سبقته العين] .

لذلك نهى الرسول عن رذيلة الحسد بقوله :

[إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . ومما يعين الإنسان على إتقاء الحسد حسن صلته بالله تعالى ، وتضرعه إليه ليصرف عنه الحاسدين، وقراءة القرآن الكريم] .

وفى مصر إستطاع يوسف بعد أن زوّد إخوته بالبيضاة التى طلبوها وأكرمهم ، أن يحجز شقيقه وحببيه بنيامين بحيلة السرقة (سرقة كأس الوزير). والنّى بالتفتيش وُجِدَتْ فى متاع بنيامين (فقد دُست فيه بفعل فاعل وبأمر يوسف) وعليه إحْتَجَزَ عبدا للوزير لمدة سنة كعقوبة. وعاد إخوة يوسف بدون أخيهم إلى أبيهم ، فأخذة الحزن والبكاء حتى إبيضت عيناه :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ

كَظِيمٌ ﴾

(يوسف ٨٤)

قد يعتقد البعض أن يعقوب قد فقد بصره أو أصابه مرض مثل السحابة على قرنية العين، أو المياه البيضاء (كاتراكتا). وهذا غير صحيح علميا. لأن المياه البيضاء لا تسبب بياض العين، ولكنها تحدث بها ضعف فى الإبصار. والمحتمل، إذا أردنا التفسير العلمى، أنه من شدة حزن يعقوب، أصابته صدمة نفسية أو عصبية تسببت فى زيادة ضغط عيناه بصفة مؤقتة، أدت إلى بياضهما مع فقدان بصرهما تدريجيا، وبصفة مؤقتة أيضا، وإلى أن يزول المسبب للصدمة... والله أعلم .

أمر يعقوب أو لاده أن يرتدوا إلى مصر بحثا عن بنيامين وعن يوسف، وألاّ يقنطوا من رحمة الله (يوسف: ٥٨-٧٩) .

عاد أبناء يعقوب إلى وزير مصر مستعطفينه لكى يُطلق سراح أخيه الصغير، كى يعود إلى أبيه الشيخ الذى فقد بصره لحزنه على فقدانه . وتكلم الوزير بلغتهم (السريانية أو الآرامية، وهى لغة أهل "أرام أو إرم" بالعربية) وسألهم عما فعلوه بيوسف... ؟ (أى فى محنته الأولى، التى كانت معهم يوم ألقوه فى البئر بسبب حقدهم وجهلهم). فأدركوا أنهم يقفون أمام يوسف ، وأحسوا بالخوف والخزى الشديد . لكن يوسف عفا عن إساءتهم، ضاربا لهم مثلا فى الصبر والغفران بعد أن أسئغفر لهم ربه. وأعطاهم قميصه وأمرهم أن يعودوا به إلى أبيه ويلقوه على وجهه فيرتد بصره . وأن يحضروا إليه أباه وأمه (أى خالته "ليئة" التى كفلته هو وشقيقه بنيامين بعد موت أمهما) وجميع أهلهم (حوالى ٧٠ نفرا). وبذلك دخلوا مصر آمنين، فى حوالى عام ١٦٩٢ ق.م.، وكان يوسف قد جاوز المائة. وعليه يكون يعقوب ضيف الله السادس بمصر، هو وبقية أبنائه الأسباط (وعدددهم ١١ بدون يوسف) الذين جعلهم الله فى عداد الأنبياء. وأوحى إليهم ليقوم كل واحد منهم بتنفيذ شريعة الله فى أبنائه وأحفاده، أى فى سبطه :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۗ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا ﴿١١٢﴾ ﴾

(النساء ١٦٣)

نلاحظ هنا أن مشهد استخدام قميص يوسف لإنقاذ بصر أبيه يعقوب هو الاستخدام لثالث مرة . فقد سبق وأن استخدم مرتين ولكن لإنقاذ يوسف: عندما قدم إخوة يوسف قميصه (بعد إلقائه في البئر) وعليه دم كاذب، لأبيهم (وهم يمكرون) كأداة لإثبات إفتراسه بالذئب (المحنة الأولى) . وكذلك عندما راودته امرأة العزيز عن نفسه وشقت قميصه من الخلف (المحنة الثانية). وهذا يؤكد أن الله، سبحانه وتعالى، قد يَسَّرَ القميص كآية ليوسف ولأبيه :

﴿ قَالُوا يَا بَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَيْنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ۖ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۗ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۗ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(يوسف ١٧-١٨)

(يوسف : ٢٣ - ٢٩) سبق ذكرها .

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(يوسف ٩٣)

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾

﴿ آمين ﴾

(يوسف ٩٩)

ولقد فسر القرآن الكريم، كما ترى، معنى إسم يوسف بالذى آوى أو إستضاف، أى فهو الآوى المضيف. أما معنى إسم " بن يامين " فهو ابن المقدس أو ابن المبارك .

إستضاف شعب مصر يوسف وأهله ودانت لهم مصر كلها. وأقام العبرانيون، وكانوا رعاة ماشية، من بعده بأرض "جاسان" (الصالحة للرعي) بشرق الدلتا أكثر من خمسة قرون، أى إلى عصر الأسرة التاسعة عشر (حوالى عام ١٦٩٢ - ١٧٨٠ ق.م.). ويُعتقد أن يوسف قد عمل ذلك متعمدا، لئيبعد أهله الموحدون عن مخالطة المصريين الوثنيين. بذلك دخلت مصر فى هذا الزمان عن طريق يوسف الصديق شريعة التوحيد وعبادة الله وحده. وبهذا نجح يوسف فى إنبات البذرة التى سبق وأن غرسها جد أبيه إبراهيم فى مصر منذ أكثر من قرن ونصف قرن. ومات يعقوب فى حوالى عام ١٦٤٦ ق.م. وقد بلغ من العمر ١٤٧ سنة. وأوصى أبناءه بمواصلة شريعة التوحيد، وأن يُدفن عند أبيه وجده فى حبرون. ولما مات يوسف، وقد عاش لسن ١١٠ سنة (حوالى عام ١٦٣٢ ق.م. - وقيل لسن ١٢٠ سنة... والله أعلم) وكان قد أنجب ولدين "إفرايم" و" منسى أو منسا"، حُنِطَّت جثته كذلك ووضعت فى تابوت، وحفظت إلى أن أخذها بنو إسرائيل هو وجثة والده عند خروجهم، بعد ذلك، مع موسى من مصر وسيناء، ودخلهم الأرض المقدسة بعد حوالى ٤٥٤ سنة، حيث دفنا فى مغارة المكفيلة بحبرون بأرض أخيه يهوذا (الخليل بفلسطين حاليا). وقيل أن يوسف قد دفن فى أرض أبنه إفرايم ب"شكيم" (نابلس حاليا) وله ضريح هناك (عن التوراة) .

بمرور الزمن بعد موت يوسف بمصر، إرتدّ الكثيرون عن ملة التوحيد وعهدها المضيئ إلى تعدد الأرباب مرة أخرى. وكان هذا التغيير مخططاً لصالح الطبقة الحاكمة وتديبرها على الأرجح، وحتى يعود نظام الحاكم الإله. وترك العبرانيون التوحيد وتشبهوا بالمصريين، فيما عدا بعض العائلات المحافظة والتي ظلت على ملة إبراهيم وأنبياء القدوة في الخفاء. ولقد تكاثر العبرانيون وزاد عددهم وإشتغلوا العديد من الحرف وعاشوا ضيوفاً على مصر في أمن وأمان وسلام حتى صارت لهم جالية كبيرة (تشغل معظم محافظة الشرقية حالياً) إلى أن جاء موسى كأول نبي لأنبياء الدعوة . وأنزل الله عليه أول الكتب السماوية (التوراة) في حوالي عام ١٢٦٣ ق.م. في عصر الأسرة ١٩ بالدولة المصرية الحديثة (الفرعونية) والتي أطلق عليها اسم الإمبراطورية المصرية الثانية .

جاءت قصة يوسف، عليه السلام، بالقرآن الكريم بما فيها من عبر لكل صاحب عقل وذكاء، وقد وقعت أحداثها قبل زمن نزوله وخياً وصدقا من لدن الله جل جلاله على محمد، صلى الله عليه وسلم، بما يزيد على ٢٣ قرناً :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ
وَهُمْ مَكْرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(يوسف ١٠٢)